وصف الطبيعة عند شعراء بلاد الغال في الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين

أ. تغريد فاروق محمد الحسانين

باحثة دكتوراه

كلية الآداب – جامعة بني سويف

تحت إشراف أ.د. هانم محمد فوزي

Abstract

Description of Nature among the Gaul Poets in the Period between the Fourth and Sixth Centuries AD

This study refers to the role of nature in the period between fourth and sixth century by the Gaul poets. Those poets were very proud of their homelands and its magnificent landscapes. They employed this nature with their distinguished teaching in the integration and consolidation of relations and identities between their country and the Roman Empire, through their knowledge of nature, distinguished teaching, as well as good knowledge of the classical origins.

After the division of the Roman Empire and the emergence of kingdoms in the North, the rivers became the preferred sites for their strong desire to merge together to transfer and exchange of cultures and identities in a late period of late Roman Empire.

Keywords: Ausonius 'Mosella, Roman Empire, Gaul, Sidonius, Fortunatus.

بحلول القرن الثالث الميلادى، أصبح المؤرخون قادرون على التحدث عن عرق جديد وتلاقح ثقافى وسياسى جديدين بين روما وبلاد الغال، حيث أصبحت بلاد الغال هى المركز النابض للثقافة الرومانية وذلك عن طريق مدنها الكبرى مثل ترير "Trier" وميتز "Metz" وبوردو "Bordeaux" وأرليس "Arles". فقد كانت هذه المدن تحتوى على شبكة من الطرق والأنهار والمنتجعات الريفية التى تحتوى على الفيلات الرومانيه، وكل مظاهر الترف المنقولة عن الثقافة الرومانية، بما فى ذلك الحمامات وقنوات المياه الصناعية، والمقاعد المسرحية. كما تميزت هذه المدن بضمها لأهم شعراء هذه الفترة، الذين حملوا على أعناقهم لواء التغير الثقافى والتلاقى بين ثقافة العاصمة روما والثقافة المحلية لبلاد الغال.

وكان هؤلاء الشعراء أعضاء فى المجالس المحلية، وكان معظمهم من طبقة الأثرياء والمنتمين إلى الطبقات السياسية والاجتماعية الرفيعة، ودرسوا جميعًا طبقًا لنظام التعليم الرومانى. ونظموا الكثير من القصائد التى تصف وتثنى على البيئة الطبيعية التى تميزت بها بلاد الغال إذ كانت تحتوى على كثير من التفاصيل الرائعة عن هذه الظواهر الطبيعية. واستخداموا الاختلافات بين هذه الظواهر كعلامات على الاختلافات بين الشعوب والتى أدت إلى التكامل و توطيد العلاقات بين الهوية الرومانية وهوية بلاد الغال. فالإهتمام بالبيئة ووصفها يعتبر جزءًا من النسيج الثقافى للمجتمع فى هذا العصر وهى متجذرة فى الخيال البيئى منذ العصور المبكرة.

وتظهر بهذه الأشعار الخاصة بالبيئة والطبيعة كثير من الملامح الأدبية لهذا العصر، وما بها من اختلافات عن الأشعار الكلاسيكية المبكرة، ويظهر بها الإهتمام بالطبيعة نفسها وما تجود به من مناظر خلابة يتم وصفها بأدق التفاصيل والأساليب الأدبية المناسبة لذلك.

يشير هذا البحث إلى مجموعة من التساؤلات يمكن اجمالها فى الأتى:

١) ما هى السمات الأدبية لشعراء بلاد الغال فى العصور المتأخرة من الأدب الرومانى؟

٢) أسباب اتجاه الشعراء الذين ينتمون إلى بلاد الغال إلى أشعار وصف الطبيعة؟ وما أهمية ذلك؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات يجب أن نشير إلى حدود بلاد الغال الرومانية التى تمتد من جبال الألب الشمالية وحتى نهر الراين جنوبًا، وشملت مقاطعات كثيرة من بينها فرنسا وبلجيكا شمالا، وتحدها ألمانيا من الشرق، ومن الغرب المحيط الأطلسى[١]. وقد عملت الإمبراطوية الرومانية على دمج هذه المقاطعات فى ثقافتها الرومانية حيث أن المنطقة الغالية عرفت بتنوعها الطائفى والسياسى وحتى اللغوى. ولإحداث هذا الإندماج والارتباط بين روما وبلاد الغال كان لابد من إحداث شكل من الاستقرار وذلك بالتفاوض مع القبائل الكلتية والغالية. ونتيجة لهذا حدث نوع من التغير فى المشهد السياسى وفى الخيال الأدبى لدى شعراء هذا العصر. فقد كان الأدب حينذاك يواجه ثقافات ولهجات جديدة، وكان على شعراء هذا العصر التعايش مع هذه التغيرات حتى يستجيب الخيال الأدبى للعالم المتغير بإستمرار[٢].

ومما تميز به هذا العصر الاتجاه إلى فن التصوير إذ أصبح الفن فى هذا العصر متكلفًا، لأنهم جاءوا بعد ما كتب شعراء العصور السابقة فى كل شئ ولذلك اتجهوا إلى دراسة النماذج القديمة لاستلهام مابها من جمال فنى. فنجد فى هذه الفترة المتأخرة أن المسرحية قد اختفت تقريبًا بعد الشعراء الفلافيين، ولم يعد هناك سوى الشعر المحلمى والتعليمى والغنائى الذى تعهده كثير من شعراء ذلك العصر، إلا أن عددًا منهم طواه النسيان إذ أنهم كانوا خاويى الفكر ، تواقين إلى نيل التصفيق. وأصبح السائد فى هذا العصر هو المختارات من هنا وهناك. وكذلك القصائد المسماة "Acrostica" (أى القصائد التى إذا جمعت أولها وآخرها شكلت كلمة أو عبارة).

1- Arnold, E.F. (2014) "Fluid Identities: Poetry and The Navigation of Mixed Ethnicities in Late Antique Gaul "Ohio Wesleyan university, Ecozon, vol.5 (2), 91.

2- Marreo, H. (2011) "Literary Landscapes and the National Imaginary Introduction" Ecozon,2.1,, 8

ولكى نجد شاعرًا ذا مكانة خاصة. فعلينا أن نصل إلى نهاية القرن الرابع الميلادى الذى ازدهر خلاله ديكميوس ماجنوس أوسونيوس Decimus Magnus Ausonius حوالى عام ٣١٠م، ذلك الشاعر الذى يعتبر استثناءًا مهمًا.

نظم أوسونيوس Ausonius العديد من القصائد والرسائل المهمة، ومن بين هذه الأعمال كتب عن الطبيعة واهتم بها اهتمامًا كبيرًا ، ويعتبر من أكثر شعراء عصره ازدهارًا وتميزًا، وفى القرون التالية له ظهر كلاً من الشاعر سيدونيوس Sidonius Apollinaris والشاعر فينانتيوس Fortunatus Venantius اللذين ازدهرا فى كلا القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وهما ينتميان كذلك إلى بلاد الغال ونظموا أشعارًا فى الطبيعة وعلاقتها بالهوية السياسية(١).

لقد نظم أسونيوسAusonius قصائد وابيحرامات عن الطبيعة التى جسدها فى هذه الأعمال إذ وصفها بأدق التفاصيل لإظهار جمالها وأهميتها. وكان يحرص على التأكيد أن المنظر الطبيعى الذى يرسمه إنما هو من نتاج الطبيعة فقط وليس من نتاج الأيادى البشرية أو العقول البشرية التى ليس لها يد فى صنع هذا المنظر الطبيعى الجميل الذى يرسمه بأشعاره بل على العكس فأيد البشر هى من لوثته وآذته.

وذلك على خلاف شعراء آخرين كتبوا عن جمال الفن وكيف أن أيد البشر أظهرت هذا الجمال وأضافت إليه(٢).

ومن بين أعمال أوسونيوس عن الطبيعة ابجراماته عن نهر الدانوب وكذلك عمله عن المدن وقصيدته المسماة بيسولا "Bissula"، والتى لم يتبق منها سوى أربعه شذرات قصيرة عن Bissula الفتاة الشقراء الجرمانية الجميلة.

حيث يعبر فيهما على كرهه وغضبه من الزحام ويؤكد أن البهجة الحقيقية فى المناطق الريفية حيث الطبيعة والأراضى الخضراء(٣).

1- .Arnold (2014), 88.

2- Green, R.P. (1989)" Man and Nature in Ausonius ' Moselle", Illinois Classical Studies, vol . 14 (1/2) , 306.

3- Ibid, 314 – 315.

ويظهر حب أوسونيوس الشديد للطبيعة فى قصيدته الموسيلا التى تعد أشهر أعماله حيث يظهر سعادته بروعة انعكاس الطبيعة على التلال المزروعة بأشجار الكروم، فلم يكن اهتمام أوسونيوس بمهارة الزارع ولا بفائدة المنتج من الزراعة، ولكنه كان مهتمًا ومبهورًا بجمال نهر الموسيلا وقدرته على اظهار انعكاس الطبيعة الخلابة على صفحة مياهه.

ويدين أوسونيوس فى هذه القصيدة إلى قصيدتى ستاتيوس "Statius" فى عمله "Silvae" ، فى وصفه لفيلات رعاته وأصدقائه، إلا أنه يختلف معه فى كراهيته لمظاهر الزينة الفاخرة للفيلات الرومانية، وذلك عن طريق ذكره لتصريحه الجرئ فى قصيدته الموسيلا عن عمل الطبيعة ومقارنته بالأعمال الفنية (Mos, 48, naturae opus)، فباستخدامه لكلمة "Opus" يجعل من الواضح أنه بالرغم من أن الطبيعة لديها مشابه فى جمالها ولكنها تتميز على الفن فى تحررها وخلوها من الفساد الأخلاقى، فعلى الرغم من أن شجب الثراء كان متعارفاً عليه فى الشعر الرومانى، إلا أن أوسونيوس لم يستخدم إتهامه وإدانته لهذا النوع كأساس يبنى عليه مدحه لشكل الحياة البسيطة، ولكن رؤيته كانت بشكل واضح موجهة تجاه الطبيعة نفسها، وليس الإنسان.

وقد ظهر ذلك فى ازدراء أوسونيوس مستبعدًا المساحة المغطاة بألواح الخشب والرصيف الرخامى، وهو نوع الزينة التى وصفها ستاتيوس فى فيلات أصدقائه (Silvae 2.2)، وعلى سبيل المثال هذا الكتالوج من الرخام والذى وجد فى حجرة فى منزل بوليوس فيليكس Pollius Felix (94 -85) ، الذى كان صديقًا لستاتيوس وقد أهداه قصيدتين فى كتابه الثانى من Silvae ، وهما القصيدتان الثانية والثالثة من هذا العمل بمناسبة امتلاكه فيلا ريفية جديدة فى سورنتوم Surrentum [1] .

وكان لهذا الرجل ثروة كبيرة وكان لديه الكثير من الفيلات الريفية فى كامباينا وتيبور وتارنتوم، وكانت ثروته قائمة على تربية قطعان الماشية ومزارع الكروم.

---

[1] – سورنتيوم Surrentum ، وهى مدينه تقع على ساحل كامبانيا جنوب ايطاليا وتطل على خليج نابلى، معروفة الآن باسم سورينتو.

وتتناول هذه الفصيدة تصويرًا فنيًا لفيلته التى تقع فى سورنتوم Surrentum ، حيث يصف ستاتيوس أولاً المكان الذى تقع فيه الفيلا وما يحيط بها من مناظر طبيعية، ثم يتجه إلى تصوير ووصف الفيلا ذاتها وابراز مظاهر الثراء التى كان ينعم بها صاحب هذه الفيلا، حيث حدائقها الغناء وأشجار الكروم، ثم تناول وصف الحجرات العديدة داخل هذه الفيلا والتى يصفها بأنها مزينة بأنواع مختلفة من الرخام اليونانى النفيس.

كما كانت تتميز هذه الفيلا بسيطرتها على الطبيعة ، وذلك لأنها تقع فى منطقة ساحلية قاحلة على قمة الجرف، ومن أجل ذلك استلزم بناؤها جهدًا كبيرًا من أجل تهيئة الأرض لبنائها ، فهذا يرمز أيضًا إلى مكانته الاجتماعية[١]. ويعبر عن ثرائه فى امتلاكه الكثير من الفيلات، وقد تزينت بأنواع مختلفة من الرخام والتماثيل والحمامات الفخمة واختيار ستاتيوس للوصف الدقيق للرخام اليونانى متعدد الألوان يرمز إلى مكانته الشعرية والفلسفية بين الآخرين، ويعبر كذلك عن الذوق الرفيع لبوليوس[٢].

وكذلك ذكر ستاتيوس نوع الرخام نفسه فى قصيدته الثالثة الموجهة إلى بوليوس وهى (Silvae. 3.1, 527) ، والتى يصف فيها ستاتيوس الرخام اليونانى المميز الذى يعكس الضوء من أعلى وذلك نتيجة ترميم بوليوس لمعبد الإله هيراكليس الذى كان يقع بجوار فيلا بوليوس الخاصة [٣].

وقد تأثر أوسونيوس فى قصيدته الموسيلا بهاتين القصيدتين اللتين ظهر بهما التأكيد على سيطرة الإنسان على الطبيعة وتأكيد ستاتيوس على أنواع الرخام والفيلات فى حين أن أوسونيوس اختار بدلاً من ذلك أن يعلى الطبيعة فوق عمل الإنسان، ووصف

---

١ – مروة السيد عباس (٢٠١٥)، " مختارات من ديوان السيلفاى" لستاتيوس كشاهد على عهد دوميتيانوس، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة القاهرة، ص ٩٤.

2- Zeiner , N.K,(2005) "Nothing Ordinary Here : Statius As Creator of Distinction in The Silvae", New York, 183.

3 - Newlands, C.E(2002 a) "Statius" Silvae and Poetics of Emprie, "Cambridge., 175-176.

أوسونيوس للزراعة والمساحة الخضراء المزروعة فى مقابلة الكتلة الرخامية المسطحة عند ستاتيوس هو سخرية من فشل المحاولات الفنية فى مضاهاة الطبيعة[١].

فنهر الموسيلا نفسه ووحده، وليس الإنسان هو الذى يقوم بمهمة الربط وليس قطع الرخام وهو بذلك يدعم فكرته عن قوة الطبيعة ودعمها وفشل هذا التزين المتكلف.

ولكن يظهر تأثر أوسونيوس بستاتيوس فى وصفه لثراء الفيلات والبناء المعمارى والحمامات فى قصيدته الثالثة من الكتاب الأول (Silvae.1.3). حيث وصف المياه الصناعية فى قصيدته المهداه إلى مانيليوس فوبيسكوس Manilius Vopiscus [٢]، والذى يصف بها مظاهر الثراء فى فيلته المتميزة على ضفة نهر التيبر والتى تتمتع بأنها عبارة عن مبنيين متماثلين يقعان على ضفتى نهر انيو Anio .

وقد حرص ستاتيوس على إيضاح موقع الفيلا المتميز وعمارتها الهندسية الفريدة حيث أنها لا تسمح للرياح الشديدة أن تمر خلالها، ولكنها تسمح فقط بالتمتع بضوء الشمس ودفئها[٣]. إذ يبدأ ستاتيوس قصيدته بالمصدر Cernere بمعنى "يرى أو يدرك"، وذلك ليؤكد على أن المشاهده والرؤية هى التى تتحكم فى المشهد الوصفى:

"إذا نظر الشخص إلى التيبر البارد الخاص بفوبسيكوس البليغ
وآلهة المنزل التوأم التى تتخلها (نهر) أينو"[٤].

Cenere of facundi Tibur glaciale vopisci
Si quis ET inser to geminos Aniene Penates
(Silvae.1.3.1-2)

1- Newlands, C.E (1974 b) "Naturae Mirabor opus": Ausonius Challenge to Statius in the Mosella Transaction of American Philological Association, vol.118, P. 407.

٢ – مانيليوس فوبيسكوس Manilius Vopiscus : كان راعيًا ثريًا يمتلك العديد من الفيلات، وكان يعتنق المذهب الأبيقورى، كان محبًا للأدب وراعيًا للشعراء ورجلاً عرف بأنه واسع المعرفة ولم ينخرط فى الحياة السياسية وفضل أن يعيش حياة هادئة بعيدًا عن الضوضاء داخل روما.

3- Chinn, C.M.(2002) "Statuis and Discourse of Ekphrasis, Ph.D. Dissertation .Unv. Of Washington . 146.

٤ – مروة السيد عباس (٢٠١٥)، " مختارات من ديوان السيلفاى" لستاتيوس كشاهد على عهد دوميتيانوس، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة القاهرة، ص٩٤.

ويؤكد ستايتوس فى وصفه للفيلا على الأعمده الذهبية داخلها وأبوابها المصنوعة من المرمر والأرضياء التى تكسوها الفسيفساء، والحمامات والنافورات والتماثيل الفنية التى تزين الفيلا:

"تعجبت وأنا أخطو على (هذه) الثروة. فيشع بريقًا متدفقًا من أعلى (السقف)، ويعكس القرمسيد لمعان الأرضية البراقة،

حيث تبتهج الأرضية المطلية بالأعمال الفنية المختلفة،

وتفوق الأرضية التى تكسوها الفيسفساء بأشكاله الجديدة" [١].

Calcabam nexopinus opes, nam splendor abalto
Defluus ET nitidum rederntes aera testae
Monstravere solum, varias ubipicta perartes
Gaudet humus superatque novis asaetota figuris
(Silv.1.3.53-56)

وهذا يظهر بوضوح تأثر أوسونيوس فى قصيدته الموسيلا بقصيدة ستايتوس، فلقد استخدم أوسونيوس كذلك "Vidi ego" ، وهو ما يؤكد على أن أوسونيوس يرى بنفسه ما يصفه ويقارن به الآله ورغبته فى أن يغمر نفسه داخل مياه فيلا مانيليوس فابيكوس، وذلك بوجود النهر كطبيعة متلألئة ومياهه الباردة للغطس من أجل المستحمين المتعبين من الحمامات ذات الثراء الاصطناعى[٢].

رأيت بنفسى المجهدون من الحرارة الشديدة

والرافضون لحمامات الغوص الباردة

إلا أنهم يستمتعون بالمياه الجارية.

Vidi ego defessos multo sudore lauacri
Fastidisse lacus et frigora piscinarum,
" Ut vivis fruerentur aquis.
(Mos. 341-3)

وهى الأبيات التى تشير بشكل مباشر إلى (Silv.I.3.73) :

Vitreasque natatu planudit aquas

---

١ – المرجع السابق نفسه ، ص ص ٩٤– ٩٥.

2- Kenney,D.L., (1984) "The Masella of Asuonius" Greece and Rome, vol.31, (2), 193-4.

وكذلك إلى وصف حمامات كلاوديوس اتريسكوس Claudius Etruscus فى القصيدة الخامسة من الكتاب الأول للـ Sivlae (Silv. 1.5.60)

ورغم تأثر أوسونيوس بستاتيوس فى وصفه لمظاهر الثراء إلا أنه يختلف عنه، إذ لم يكن هدف أوسونيوس سوى أن يثبت أن المياه الطبيعية أحلى وأمتع حيث يزورها الأشخاص للاسترخاء بعيداً عن الأشياء المصطنعة حولهم فى المدينة، وعلى الرغم من برودة هذه المياه قليلاً إلا أنهم يشعرون بجمالها وينجذبون إليها.

وذلك لكى يؤكد على جمال الطبيعة وكل ما هو طبيعى لم تصله يد الإنسان، فى حين أن هدف ستاتيوس من وصفه هو ابراز جمال الحمامات والفيلات فقط من أجل وصفها واظهار ثراء ورفاهية مالكيها ، والثناء علي ثرواتهم وتحديهم للطبيعة بالبناء والحديث عن التقنيات الحديثة التي سيطرت عليها وصنعتها أيدي البشر بينما يثني أوسونيوس علي الطبيعة التي هيأت الحياة لكي يعيش البشر حياة سعيدة فى كنف الطبيعة [1].

فليست الطبيعة هي من تعتدي علي حرية البشر ، ولكن البشر هم المعتدون علي الطبيعة وجمالها وهو ماظهر في وصف أوسونيوس لأنواع مختلفة من الأسماك التي تعيش بداخل نهر الموسيلا حياة أمنة ولا يهدد هذا الأمن سوى الإعتداء من جانب الصيادين على هذه الأسماك الضعيفة التي بدأ أوسونيوس في وصفه لها بذكر أنواعها المتعددة وأشكالها وألوانها حتى أنه ذكر خصائصها وطرق حفظها وطهيها (Mos .82 _149) .

وقد تأثر أوسونيوس في ذكره لأنواع الأسماك بالأعمال المبكرة التى كان بها تاكيدًا علي أن الأسماك هي أكبر نتاج للطبيعة ، وهو ماذكره بلينيوس Plinius في افتتاحية كتابه الإثنين والثلاثين من تاريخ الطبيعة ؛ وكذلك ذكر أوفيديوس قدرة الأسماك في الدفاع عن أنفسهم من مفترسيها . ولكن أوسونيوس علي الجانب الآخر، قد تفادي ذكر الأليات الدفاعية لهذه الأسماك ما عدا نوع واحد هو الذي أعطى له هذه الصفات العدائية وهو سمك الكراكي ، ولقد نظم أوسونيوس ببراعة وصفًا دقيقًا لصيد الأسماك وتصوير مدى قسوة الصيادين وضعف الأسماك البريئة الضعيفة ، ولم يمتدح

[1]- Ibid,. , p.195.

أوسونيوس مهارة الصياد ، ولكن بدلاً من ذلك فهو يؤكد الدور العدائي للصياد مع مهاراته في الخديعة.

فالأسماك هي الضحية البريئة (Igonora doli , 250. Mos) ، وصور معاناتها في محاولة الإفلات من شبكة الصياد وعودتها الي الحياة مرة اخري قائلاً:

"أنا بنفسي شاهدت (سمكا) يرتعش ويكابد آلام الموت .
ويستجمع أنفاسه الأخيره ، يقفز عاليا في الهواء ،
يلقون بأنفسهم الي أسفل النهر ليستعيدون
الحياة التي لم يعتقدون أنهم سيحصلون عليها مرة أخري. "

Vidi egomet qmosdam leti subfine trements collegisse animas,
mox im sublime citatos.
Cernua subiectun praeceps date corpora in amnem,
desperatarum potientes rursus aqmarum.
(Mos. 270. 273)

فلقد أراد أوسونيوس من هذا الوصف استحضار تعاطف مستمعيه من صيد الأسماك العنيفه ليضع هذا الأمر كفن من الفنون البشريه التي تشوه الصوره الطبيعية في هذه البيئه الطبيعية الجميله الساحرة[1].

ولكي يبرز فكرته بشكل أوضح فقد أشار إلي النتائج والعواقب التي تؤثر سلباً علي المظهر الطبيعي والذي هو نتيجه للعنف البشري والمهارة التكنولوجية ، وذلك عن طريق إشارته إلي تصدي البشر للطبيعه عن طريق ذكره لمجموعه من المهندسين الذين بنو الفيلات حول شاطئ النهر.

وعلي الرغم من أن أوسونيوس قد تأثر في هذا بكتالوج المهندسين عند كل من بلينوس (N.h.7.125) ، وفارو (Hebadomades) ، فإن تناوله لهولاء المهندسين كان مغايرا تمامًا لما نقل عنهم ، فقد تناول الفن الكلاسيكي أعمالهم وخلدها كدليل على نفعهم لبنى البشر، علي خلاف أوسونيوس الذي ذكرهم فقط ليعبر عن شذوذ الإنسان وانحرافه عن الطبيعة .

1- Roberts , M ,(1981) " the Mossella of Ausonius ;An interpretation", Transacthions of American Philological Association.,345-346.

فقد ذكر علي سبيل المثال ديدالوس Daedalus الذي بكى ولده الذي فقده بسبب تحديه لقوانين الطبيعة (Mos . 300 -2) ، وينتهي بذكر دينوخاريس Dinochares الذي بنى التمثال الذي يخلد العلاقة بين كل من أرسينوى وبطلميوس.

فإشاراته لتمثال أرسينوي (Mos .315) ، يعبر عن القسوة والعقاب بدلا من الاحتفال . وحتى عمل دينوخاريس Dinochares عن بناء الهرم قدّم في عبارات سلبية ، (Mos. 33 -312) ، وأن هذا المبني المتميز هو مبني معاد للنهر ويحجب الضوء الذى ينعكس علي صفحة النهر وينشر جمال الطبيعة.

فأوسونيوس لم يشر إلي الرسامين الذين زينوا هذه الفيلات من الداخل ولكنه اختار بدلا من ذلك أن يحيط أبياته بعرض مشاهد وصورا سلبية للذي يفسد الطبيعة والمنظر الطبيعي حول النهر . فلقد كرس أوسونيوس كل مهاراته البلاغية والشعرية لإبراز جمال الطبيعة والتي كانت سمة من سمات هذه العصور المتأخرة حيث الاتجاه إلي الطبيعة والتأمل فيها.

ومن التركيز علي وصف الطبيعة حول النهر وداخله انتقل أوسونيوس إلي التاكيد علي دور هذا النهر وأهميته التي منحتها الطبيعة له وموقعه المهم الذي يصوره أوسونيوس بأنه النسخة الغالية لروما ، ويصف رغبة التيارات الأخرى حوله في الاندماج داخله مثل القبائل الجرمانية التي بحلول القرن الرابع الميلادى أرادت الاندماج داخل الثقافة الرومانية .

وذلك عندما وصف أوسونيوس مشهد التيارات المتعدده والروافد الكثيرة التي ترغب في أن تندمج وتنصهر داخل الموسيلا ، وهو مايدل علي الرغبة في الاستيعاب المتبادل الإيجابي وليس العدواني[١]. وكذلك فهي تعبر عن استيعاب موجات الغزاة في التاريخ الوطني لروما[٢]. فقد كانت الثقافة الرومانية بحلول القرن الرابع الميلادي

1- Ibid,351.

2- Cusack , T, (2010), Riverscapes and National Identities ; Syracuse University press, 60.

تقدم للكثيرين ليس عن طريق روما فقط ولكن عن طريق الحدود المهمة علي طول نهر الموسيلا أيضًا[١] .

فلقد أدرك أوسونيوس هذه الرغبة من قبل التيارات الأخرى للاندماج داخل تيار الثقافة الرومانية عن طريق الاندماج مع نهر الموسيلا . وقد تأثر أوسونيوس بذلك من خلال مصادره الكلاسيكية ، حيث عرف أن مصدر المياه المشترك يشير إلي المشاركة الثقافية ، فالنهر يشترك في هوية التي يتغذي علي مياهه[٢]. ولذلك فقط نظم أوسونيوس أكثر من قصيدة عن نهرى الدانوب والراين وهما الحدود النهرية الأكثر بروزا في العالم الروماني المتأخر ، فخلال القرن الأول الميلادي بدأ الإمبراطور تيبريوس Tiberius بربط نهر الراين بشكل لا يمحي مع الحدود الرومانية ، حرصًا منه على الاندماج الجرمانى في روما. ولذلك فالشعراء يتخيلون كلاً من هذه الأنهار كحدود وكرموز لقوة الإمبراطورية وهويتها وهو ما ظهر عند أوسونيوس وكذلك عند الشعراء ذوى الأصول الغالية الذين جاءوا في القرنين التاليين له .

فعلي سبيل المثال في القرن الخامس الميلادى ظهرت أعمال سيدونيوس أبوليناريسٍ sidonius Apollinaris (٤٣٠-٤٨٩م) الذى ينتمى إلى عائله رومانية غالية قوية ، وقد نشأ علي الديانة المسيحية ، وتلقى تعليمًا مميزًا واختلط بطبقات المجتمع الرفيعة مما سمح له ذلك بالزواج من ابنه الإمبراطور أفيتوس Avitus ، وهو ما سهل له توثيق علاقته بشخصيات مهمة في الإمبراطورية[٣].

وقد تنقل بين المناصب السياسية إلي أن استقر في أوفيرجين Auvergine ، وهي منطقة في بلاد الغال بالقرب من مدينة بوردو ، وركز في هذه الفتره علي قرض الشعر فقط ، نظم سيدونيوس أبوليناريس الكثير من القصائد التي نشرها خلال صباه ، ولديه كذلك تسعة كتب تحوي ١٤٧ رسالة ، والتي تعتبر دليلا مهماً علي الحالة

1- Brown ,P ,(2012) " Through The Eye of Needle ,Wealth , The Fall of Rome , and The Making of Christinaity in The West 350-550 Ad" , Princeton University press.187.

2- Jones , P . J.(2005) " Reading Rivers in Roman Literature and Culture" , Lanham, Lexingaton Books,., 47.

3- Anderson ,W.B (1936)" Sidonius, poems and letters books 1-2 :Harvard University Press, vol. 1,.32-36..

الاجتماعية والوضع السياسي في روما في العصور المتأخرة. وقد احتفظت أعمال سيدونيوس بالحنين القوي إلى الإمبراطورية الرومانية ، وكذلك ظهر بأعماله إدراكه القوي لتحول القوي والسلطة للأراضي الطبيعية الغالية ، وعلي الأخص استخدامه للأنهار كوسيلة للاندماج الثقافي.

ففي أعماله يؤكد علي أن الجرمان يعبرون الحاجز السياسي والعرقي عندما يشربون من الجانب الروماني من نهر الراين [١]. ففي قصيدته الثانية والعشرين عن قلعة Pontius leontius ، والتي تعبر عن التحول في الهوية الرومانية إلي المنطقة الغالية الرومانية وذلك من خلال القصيدة التي نظمها سيدونيوس للثناء علي الرعاة الذين أرادو تقديمهم كمواطنين رومان.

حيث يحاول أبوللو إقناع باخوس بالتخلي عن روما والأوليمبوس وأن ينتقل معه إلي القلعة علي طول نهر الجارون في بلاد الغال.

فهذه القصيدة تمثل مدح وإشادة بليونتيوس leontius وممتلكاته ، حيث يربط فيها بين ثقافة بلاد الغال والنماذج والمعايير الكلاسيكية ، كما يظهر بها تقديرًا لجمال أبوللو وسعادة باخوس بهذا المنظر الطبيعي البديع.

وقد نظم أبوليناريس كذلك مجموعة من القصائد عن الفيلات التي شيدت داخل مدن وريف بلاد الغال[٢]، وهي التي تقع علي الأنهار ، والتي يركز بها علي تدفق المياه الغالية في مواجهة المياه الرومانية .

ومن أعماله المهمة فى وصف الطبيعة الرسالة الثانية من الكتاب الثانى عن فيلته فى أفيتاكوم "Avitacum" ، والتى يتنقل فيها بين حجرات الفيلا المختلفة ليصف المنظر الطبيعى الذى تطل عليه هذه الحجرات ، وكان الهدف من هذه الرسالة هو ابراز جمال المناظر الطبيعية فى هذه المنطقة للحث على قضاء العطلات الصيفية بها ، والتى كانت البحيرة المحيطة بهذه الفيلا هى عامل الجذب الرئيسى لإختياره لهذا المكان. فقد وصف جمال البحيرة والأسماك التى تعيش بها والرحلات الليلية خلال

[1]- Ibid, 151.
[2]- Brown (2012), 187.

البحيرة وكذلك سماع أصوات الطيور وألحانها المختلفة ، ووصف أيضاً الحدائق والأشجار المحيطة بها (Ep. 2.2.12-19) .

ومن خلال هذه الرسالة يعبر أبوللیناریس عن السلام والهدوء الذى تتمتع به الطبقة الأرستقراطية من أثرياء بلاد الغال خلال القرن الخامس الميلادى حيث الاستمتاع بأوقات الفراغ وبالألعاب المختلفة والتى استمرت إلى نهاية العصور الرومانية المتأخرة[١] .

ويظهر بهذه الرسالة خصائص هذه الفترة الأدبية حيث وصف المناظر الطبيعية المحلية فى بلاد الغال من خلال وصف البحيرة وجمالها والطبيعة حولها فى هذه المنطقة ، وكذلك وصف الفيلا من الداخل وطرازها المعمارى والرخام المحلى المستخدم بها .

ولقد أكمل كذلك فينانتيوس فورتوناتوس Venantius Fortunatus في القرن السادس الميلادي (٥٣٠-٦٠٩م) ، تطور العلاقة بين المياه الغالية والثقافة الرومانية الموروثة، إذ كان فورتوناتوس نفسه مهاجرا إلي بلاد الغال ، علي الرغم من أنه كان ينتقل كثيرا عبر الحدود الجرمانية ، إلا أنه ترك روما ليصبح جزءا من العالم الغالي . وقد نجح بعد عدة سنوات فى أن يصبح جزءا أساسيًا من النسيج الاجتماعي والدينى في بلاد الغال إذ تعكس أعماله إرتباطه القوي بوطنه الجديد . فقد كتب فورتوناتوس العديد من الكتابات الدينية والقصائد القصيرة والابيجرامات .

وقد حاكي فورتوناتوس بشكل مباشر كلاً من أوسونيوس وأبوليناريس ، ونظم أشعارا متأثرة بسابقيه من الشعراء الكلاسيكيين ،إذ يربط المنظر الطبيعي بالعالم الكلاسيكي ويؤكد علي الفكرة نفسها أن النهر يمثل الروابط المتصلة داخل أي جماعة فهو ليس مجرد وسيلة اتصال ولكنه أيضا يستطيع تحويل المستعمرين من مجرد زائرين الي سكان حقيقيين لهذا المكان[٢]. وقد تأثر فورتوناتوس بشعراء القرن الرابع الميلادى

1-Visser,J(2014):" Sidonius Apollinaris, Ep.II.2: The Man and His Villa ", Journal for Late Antique Religion and Culture 8, 38-42.

2- Jones , P . J.(2005), 47.

وأبرزهم الشاعر أوسونيوس وقصيدته الموسيلا ويظهر ذلك فى أربعة من قصائده (10.9, 7.4, 3.12, 3.13) ، الموجهة إلى مجموعة من الأساقفة فى البلاط الملكى.

ففي قصيدته الرابعة من الكتاب السابع يقدم وصفاً للحياة في الطبيعة حيث الاستمتاع بالرياضة والراحة علي ضفاف أنهار بلاد الغال . ففي هذه القصيدة نرى شاعرا من القرون الوسطى يتأثر بمشهد كلاسيكي ويحوله إلي مشهد جديد يعترف فيه بخصائص وجمال منزله ، وجمال الغابات والحقول والأنهار وهي المنبع لخياله الشعري الخصب ، وبها يرسم الطبيعة حول نهر الموسيلا مستحضراً المناظر الطبيعية الرومانية فى بلاد الغال فى القرن الرابع الميلادى حيث وصف أسماك النهر (12-6) ، ووصف الطيور والأشجار والغابات (14-11)، ووصف الفسيفساء التى تعبر عن الثراء ، ولكنها تختلف عن قصيدة أوسونيوس فى أنها تأخذ منعطفاً دينياً واضحاً وتنتهى بالصلوات المسيحية .

فوصف الطبيعة من خلال القصيدة يعكس رؤية شاعر القرن السادس الميلادى وإدراكه لأهمية وصف المناظر الطبيعية ودمجها بالمفاهيم الدينية والكتاب المقدس.

وأما القصيدتان الثانية عشر والثالثة عشر من الكتاب الثالث فهما يصفان مدينة ميتز Metz ، وهى المدينة الغالية التى تقع عند التقاء نهرى الموسيلا وسيلى وهى مدينة حصينة محاطة بالنهر والأسوار العالية(16-3.13.15)، وتظهر بهاتين القصيدتين وصف المناظر الطبيعية حول المدينة حيث التلال المكسوة بأشجار الكروم ، وكذلك فهما تشيران إلى التقاء روافد الأنهار وفقدان هويتها فى نهر الموسيلا، فهذه المدينة تستمد قوتها من موقعها المتميز ومناظرها الطبيعية التى تعتبر رمزاً للرخاء والرفاهية والأمان من خلال حماية النهر والأسوار العالية الحصينة ، ويتشابه مع أبوللينياريس فى إشراكه للحماية الروحية للمدينة متمثلةً فى رعاية رجال الدين والأساقفة لها.

وفى القصيدة التاسعة من الكتاب العاشر والتى تعتبر واحدة من أهم قصائد فورتوناتوس والأكثر تميزًا عن النهر حيث يصف فيها وصول فورتوناتوس إلي بلاد الغال . وهي تؤكد علي دور النهر في صعوده وارتقائه الشخصي إلى مكانته السياسية ، فقد تحول من شخص غريب إلي ضيف مرحب به فى بلاد الغال ، ففى أثناء رحلته

يصف مدينة تريير Trier والتلال المغطاة بأشجار الكروم (10.9.1-20) ، حيث يعطى صورة عن الريف وثرواته الطبيعية وحقوله الغناء[١].

ويمكن استخلاص أن شعراء بلاد الغال في العصور المتأخرة كانوا فخورين بوطنهم وكانوا شديدى التعلق به وبمناخه وبمناظره الطبيعية الخلابة وكانوا يوظفون هذه الطبيعة مع تعليمهم المتميز لدمج وتوطيد العلاقات بين بلادهم وبين روما والإمبراطورية الرومانية ، فهؤلاء الشعراء قد تلقوا تعليمًا مميزاً لما اشتهرت به أماكن العلم في بلاد الغال من تطور وأنها تخرج فيها وقصدها أنبغ الطلاب الذين كانوا يدرسون البلاغة والأداب الكلاسيكية القديمة وكانوا يستوعبونها جيداً .

ولذلك قد أنتجت جيلاً من الأدباء ورجال البلاغة ذوي الثقافة المتميزة التى ظهرت في أشعارهم وخاصة أشعار الطبيعة التى أظهرت هذا التميز فى البلاغة والمعرفة الجيدة بالنماذج الكلاسيكية التى كثيراً أشاروا إليها في أشعارهم .

كما يبدو إعتمادهم علي الأفكار الكلاسيكية والرومانية من خلال استخدام الطبيعة والأنهار، وظهور تأثير الديانة المسيحية ومعتقداتها. فعندما تم تقسيم الإمبراطورية الرومانية أصبحت الأنهار هي الطرق الداخلية والسريعة للانظمة السياسية ولكنها احتفظت أيضا ببعض الوظائف الحدودية وأصبحت هذه الحدود هي المواقع المفضلة للمعاهدات والمفاوضات السياسية .

ومن هنا جاءت أهمية هذه الأنهار وحدودها التي تربط بين المدن الغاليه وبين روما سياسياً وجغرافياً كما كانت مساهمة شعراء هذه البلاد مهما في التعريف بهذه الحدود والأنهار ورغبتها الشديده في الاندماج والانصهار معًا لنقل وتبادل الثقافات في فترة مهمة من العصور الرومانية المتأخرة .

1- Roberts(1994), 3-13.

المصادر والمراجع:

أولًا المصادر:

Evelyn White,M.A. (1919) : Ausonius ,Mosella,Trans by.,Hugh.G.,.London, LCL. -
Mozley, M.A. (1955) : Statius, Silvae, Thebaid I-IV, 2 vols, London, LCL.-
Anderson, W.B. (1936) : Sidonius ,Poems and Letters, 2 vols, London, LCL.-

ثانيًا المراجع الأجنبية :

- Anderson ,W.B (1936)" Sidonius, poems and letters books 1-2 :Harvard University Press, vol. 1,.32-36.
- Arnold, Ellen.F. (2014) "Fluid Identities: Poetry and The Navigation of Mixed Ethnicities in Late Antique Gaul "Ohio Wesleyan university, Ecozon, vol.5(2),91.
- Brown ,P ,(2012) " Through The Eye of Needle ,Wealth , The Fall of Rome , and The Making of Christinaity in The West 350-550 Ad" , Princeton University press.187.
- Chinn, C.M.(2002) "Statuis and Discourse of Ekphrasis, Ph.D. Dissertaion .Unv. Of Washington.
- Cusack , T, (2010) " Riverscapes and National Identities" ; Syracuse Unv press.
- Green, R.P. (1989)" Man and Nature in Ausonius ' Moselle", Illinois Classical Studies, vol . 14 (1/2) , 306.
- Jones , P . J.(2005) " Reading Rivers in Roman Literature and Culture" , lanham, Lexingaton Books,.
- Kenney,D.L., (1984) "The Masella of Asuonius" Greece and Rome, vol.31, (2), 193-4.
- Marreo, H. (2011) "Literary Landscapes and the National Imaginary " Introduction" Ecozon,2.1, 8.
- New lands, C.E(2002) "Statius" Silvae and Poetics of Emprie, "Cambridge.
----------,(1974) "Naturae Mirabor opus": Ausonius Challenge to Statius in the Mosella Transaction of American Philological Association, vol.118, P. 407.
-Roberts , Michael ,(1981) " the Mossella of Ausonius ;An interpretation", Transacthions of American Philological Association.345-346.

----------, (1994) " The Description of Landscape in The Poetry of Venantus Fortunatus : The Moselle Poems" Traditio, vol.49.1-22.
Visser,J(2014):" Sidonius Apollinaris, Ep.II.2: The Man and His Villa ", Journal for Late Antique Religion and Culture 8, 26-45.
Zeiner , N.K,(2005) "Nothing Ordinary Here : Statius As Creator of Distinction in The Silvae", New York, 183.

ثالثًا المراجع العربية:

مروة السيد عباس (٢٠١٥)، " مختارات من ديوان السيلفاى" لستاتيوس كشاهد على عهد دوميتيانوس، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة القاهرة.